مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

المدينة النبوية المشرفة في رحلة "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار " للحاج عبدالله بن الصباح الأندلسي المدجن

د. مسعود محمود علي عبادي

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

المدينة النبوية المشرفة[1] في رحلة "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار " للحاج عبدالله بن الصباح الأندلسي المدجن

للمدينة المنورة خصائص خصها الله تعالى بها عن سائر المدن ، حيث سكنت فيها روح النبي الطاهر الأمين صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وهي المركز الأول لانطلاق الدعوة إلى الله تعالى ودعوة الناس إلى الدين الحق، والهداية المنجية من النار ، وتضم بين جنباتها أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الصحبة الطاهرة التي واصلت الدرب مع رسول الله في كل الأوقات ، ونصرته على المعتدين بإذن الله تعالى ، وبناء عليه ترى أن مسلمي العالم كله ,على مر العصور , يتجه إحساسهم نحو تلك البقعة المكرمة من الأرض التي أكرمها الله عز وجل عن سائر البلدان في العالم , ومنهم صاحب الرحلة موضع الدراسة.

وتكتسب الدراسة أهميتها من بعدين المكاني , والموضوعي , إذ إنها من جهة البعد المكاني تتعلق ببقعة من أقدس بقاع العالم الإسلامي ، وهي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودار الهجرة ، وثاني الحرمين الشريفين ،وعاصمة الإسلام الأولى وبها المسجد النبوي ، ومثوى المصطفى صلى الله عليه وسلم , أما البعد الموضوعي فهو يتمثل في أن موضوع هذه الدراسة هو "المدينة المنورة في رحلة أنساب الأخبار" ، والذي يدخل في نطاق الموضوعات الحضارية والتي تعد ركيزة أساسية نتبين من خلالها الجوانب الحضارية لهذا البلد , لأنها تتعلق بدارسة حياة الإنسان في مجتمعه.

التعريف بالمؤلف صاحب الرحلة:

مؤلف هذه الرحلة الحجازية هو الحاج عبد الله بن الصباح[2], ومن المؤسف حقًا أننا لم نعثر له على ذكر في كتب التراجم، وربما مرجع ذلك هو أنه لا ينتسب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء,

[1]) أما مسمى المنورة لهذه المدينة فقد اكتسبتها في القرن الحادي عشر الهجري في العصر العثماني ولذلك التزمنا بما كان يكتب في مصادر العصر عند الكثيرين من مؤرخي الفترة وهو المدينة النبوية المشرفة كما كانت تكتب في مصادر العصر عند الكثيرين من مؤرخي الفترة.

[2]) الجدير بالذكر أن للرحلة تحقيقين : فهناك تحقيق للدكتور محمد بنشريفة وتحقيق للدكتور جمعة شيخة عارض فيه تحقيق د. محمد بنشريفة، وقد اعتمدت الدراسة على النسخة المحققة من قبل د. محمد بنشريفة لأسبقيتها في الخروج من ناحية ، والجهد الكبير للدكتور بنشريفة المتمرس في تاريخ المغرب والأندلس ، علاوة على أنه ليس هناك اختلاف جوهري بين التحقيقين ، ونقاط اختلاف الدكتور جمعه شيخة كانت غالبها اختلاف في وجهات النظر . فعلى سبيل المثال يذكر د. جمعة شيخة أن ابن الصباح لم يكتب رحلته بل كان يرويها على من يكتبها وهذا وارد في بعض نصوص الرحلة وخاصة انه دائما ما يذكر قال المؤلف قال عبد الله الصباح إلى آخره . في حين يشير د. بنشريفة إلى أن ابن الصباح هو من كتب الرحلة بنفسه ولكنها تدخل ضمن كتابة الأزليات ، أو ما نطلق عليه في المشرق الأدب الشعبي على غرار "قال الراوي" .

وكل ما نعرفه عنه مقتبس من رحلته. وأول ما نعرفه عنه من خلال هذه الرحلة أنه ولد ونشأ في مدينة شاطبة التي كان قد استولى عليها وعلى مدن شرق الأندلس خايمي الأول في منتصف القرن ٧ هـ/ ١٣م[3].وقد جاء للحج في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي بعدما صارت بلده شاطبة وكثير من بلاد الأندلس مدجنة والمسلمون فيها مدجنون .

وتعد الرحلة الأندلسية التي جعلها ابن الصباح تحت عنوان "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار" رحلة متميزة ألفها مدجن أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري وأول القرن التاسع، عاش زمناً بين المدَجَّنين في شرق الأندلس ثم خرج من بلاد المدَجَّنين بنية الحج بمال حلال ورثه عن أبويه، كما يقول[4]، مع أن الفقهاء أفتوا بسقوط الحج عن المدَجَّنين لعدم الاستطاعة .[5]

والمدَجَّنون مصطلح يعنى "الذلة والصغار وقد أطلق على المسلمين الذين بقوا في الأندلس تحت حكم النصارى، وذلك من لدن إخوانهم الذين هاجروا إلى ديار الإسلام ومن المعروف أن عدداً من الفقهاء أفتوا بوجوب الهجرة من البلدان التي تغلب عليها النصارى وقد جمع هذه الفتاوى أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م) وسماها: اسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر .[6]

ونعته بالمدَجن هنا هو اقتباس لكلامه في وصفه "..بلادنا المدجلة (المدجنَة) من عمائر الأندلس لا فيهم شيخ تعلم من شيخ إلا من النسخ والكتب.."[7] ويقول في موضوع آخر متحدثاً عن نفسه "... فلما علم الحاج المبارك أن بلاد الدَّجال (الدَّجن) المغصوبة من يد المسلمين لم يبق فيها شيخ لهذه الأشياء ولا من يعتبرها اختصر وأوجز الخطاب..."[8]

أما استخدامنا صيغة الجمع المدجنون ؛ فذلك لأن المدَجّن عبدالله بن الصباح ذكر أسماء مدجنيّن

---

3 ()هناك أمثلة عديدة تدل على أنه من شاطبة حيث كثيراً ما يضرب بشاطبة المثل فى كل تشبيهاته طوال رحلته. انظر مثلاً :عبدالله الصباح : أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار ، نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط)٢٠٠٨م .ص ٩١ ، ١٨٧ ، ٦٢، ١٦١، ٧٢، ٥٧، ١٣١، ٨٧، ٢٠٨.

4 ()الرحلة، ص ١٤٩.

5 () أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (ت ٩١٤هـ):: المعيار المعرب والجامع المغرب ،أشرف على تحقيقه محمد حجي، بيروت- دار الغرب الإسلامي، ٩٨١م، ٣: ١٣٧ وعن الممارسات النصرانية في حق المدجنين انظر: ج ٢ ص ١١٩ وما بعدها.

6) الونشريسي : اسنى المتاجر ، تحقيق : حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد مجلد : ٥ ، ١٩٥٦م ، ع ١-٢، ص١٢٩.

7)الرحلة ، ص٢٦٦.

8)الرحلة ، ص ٧٦. والمقصود بالأشياء هي ممارسات النصارى في حق المسلمين من تضييق وأسر وقتل .. وغير ذلك

غيره صحبه أحدهم في القاهرة [9] ورافقه بعضهم في الطريق إلى المدينة [10] ووجد آخرين في دمشق [11] وعلى ذلك وجد مدجنين غيره ,إلا أنه هو فقط من دون رحلته , وربما دَوّنَ غيره مشاهداته أيضاً؛ ولكن ما دونه ابن الصباح هو فقط ما وصلنا حتى الآن .

ويشير المؤلف إلى أنه من قبيلة عربية قحطانية من الجنوب، هي قبيلة الصباحين اليمانية، وابن الصباح لا يترك أية مناسبة تمر دون التنويه بأمجاد هذه القبيلة وبطولاتها، سواء في العصور القديمة أو في العهد الإسلامي وهو يصرح في مواضع عديدة أن أجداده من اليمنيين الصباحين الحميريين الذين دخلوا الأندلس في عهد الفتح.[12]

وبخصوص زمن الرحلة فيمكن تحديد زمن الرحلة بالقرن الثامن الهجري إذ نلاحظ: أن الرحلة تخلو تماما من ذكر أية تواريخ , فليس فيها ذكر لأي يوم أو شهر أو سنة ؛ ولكن بناءً على ما ذكره من أسماء أعلام في رحلته يمكن أن نستدل على زمن صاحبها في الخليل وبيت المقدس , وتشير الدلائل إلى أن رحالتنا جاء لمصر التي منها ذهب للحجاز ثم بيت المقدس في عصر الظاهر برقوق أي في نهاية القرن ٨هـ/١٤م؛ لأنه حينما تحدث عن القاهرة ,ذكر أنه حضر دروس علمية للفقيه محمد البلقيني وهو محمد بن عمر بن رسلان بن نصير الكناني البلقيني ولد سنة ٧٥٦ه/١٣٥٥م وتوفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م وباشر الوظائف الجليلة وأفتى ودرس وتولى قضاء العسكر بالديار المصرية عصر برقوق[13]. ومنها ,ذكره أن أمير مكة في وقت حجه هو أحمد بن عجلان شريف مكة وفي المصادر أنه استقل بالإمارة سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م وتوفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م, في نهاية حكم برقوق؛ لأن برقوق توفي في بدايات سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م[14] , والدليل الأخير على صحة نسب

---

[9]) ذكر ذلك أثناء مروره بباب زويله ووصفه زحام الناس فيه حين قال:" كان لي جبة اشتريتها من ربض شاطبة ...وجزت بها في باب زويلة مرتين وإذا منكبها الأيمن تقطع فقلت لصاحبي أرأيت ما جرى لي في الجبة..."الرحلة، ص ١٢٧ .

[10])قال عند دخول المدينة المنورة:" ووصلنا وادي العقيق ،قال لي رفيقي أحمد الحداد من قليوجة .." الرحلة، ص ١٦٢ .

[11])الرحلة، ص ١٩٧ . يذكر أنه بعدما وصل دمشق بحث عن زاوية أهل المغرب حتى وجدها ، وعرفه بعض بني جلدته هناك كانوا فيها مجاورين متعايشين يخدمون بالنهار ويأتون بالليل . وفي القدس ذكر خبر مشابه لذلك :الرحلة، ص١٨٦

[12])الرحلة، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ١٥٩.

[13])انظر ترجمته عند: ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، (ت. ٨٥٢هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م. ج٢ص٣٧٦؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نشر سالم الكرنكوي، دار الجيل (بيروت)، ١٩٩٣م ج٤ص١٠٥ ؛ ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ١- ١٢ تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب المصرية،ج١١ص٣٨٩.

[14]) ابن حجر: الدرر الكامنة ،ج١ص٢٠٢؛ الفاسي، (ت. ٨٣٢هـ): شفاء الغرام في أخبار سلطنة البلد الحرام، دار إحياء الكتب (القاهرة)، ١٩٥٦م،ج٢ص٣٢٧؛ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٧ أجزاء، تحقيق فؤاد السيد، (القاهرة)، ١٩٦٦م، ج٣ص٨٣ ؛ ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١- ٣ تحقيق فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤، الجزء ج٣ ص٣٥٣.

رحلة ابن الصباح لعصر الظاهر برقوق الذي حكم دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز في نهاية القرن ٨هـ/١٤م وبداية القرن ٩هـ/١٥م , هو ما ذكره عند حديثه عن بني هلال ببلاد اليمامة ونجد اليمنية حيث قال أنه نقل خبر بني هلال من "... محمد الصلدي ... مؤرخ برقوق سلطان مدينة مصر ..."[15] والصلدي هو صارم الدين إبراهيم ابن محمد المعروف بابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) , وعلى ذلك تم تحديد فترة وجوده في المدينة المنورة بأواخر ق ٨هـ/١٤م .ولكن لا يمكننا تحديد أمير المدينة زمن رحلته لعدم وجود أية إشارة عن ذلك في الرحلة , ويزيد الأمر تعقيداً أنه في أواخر القرن ٨ هـ/١٤م كان الصراع على السلطة بين أشراف المدينة على أشده[16] , وحتى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجرين لم يستطع أيًا من أشراف المدينة الاحتفاظ بالإمارة غير سنة أو سنتين في أحسن الأحوال .[17]

وتزداد أهمية الرحلة إذا علمنا أنها تمثل مشاهدات ورؤي إنسان بسيط من عامة الناس ,خرج من عالم المدَجَّنين الضيق الذليل المهين فاكتشف عالما إسلاميا فسيحا قويا عزيزاً؛ فدون رحلته للتعريف بأرض الإسلام المترامية الأطراف لتعزيز الروح الدينية في نفوس المدَجَّنين بالأندلس بعد أن خرجت أرضهم عن دار الإسلام، وأصبحت تحت النفوذ النصراني مع أقلية من المسلمين فضلوا البقاء في وطنهم، ولكنهم كانوا مهددين في قيمهم الدينية والحضارية. وليس أدل على ذلك من إشارة صاحب الرحلة إلى صعوبة الحياة بالأندلس بالنسبة إلى المدَجَّنين، وإلى الجهل الذى أصبحوا عليه فهم "صم بكم"[18] كما يقول، لذا حرص ابن الصباح أن يعلم هؤلاء المدَجَّنين دينهم، أو على الأقل يذكرهم بأهم تعاليمه .

وكيفما كان الأمر، خرج المدجن من بلاد الدجن إلى غرناطة عاصمة بنى الأحمر في ذلك الوقت، وآخر حصن للمسلمين في أيبيريا آنذاك ، ثم انتقل إلى سبته وزار مراكش وفاس، وقصد تلمسان ووهران ثم الجزائر وتونس فطرابلس والإسكندرية ووصل إلى القاهرة التي نالت اهتماما كبيراً في رحلته فوصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية في مصرفي العقد الأخير من القرن الثامن الهجري، ومنها قصد مكة وأدى الفريضة وبعدها زار اليمن ثم المدينة المنورة

---

15) الرحلة، ص ١٦١.

16) أحمد هاشم بدر شيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي ،ط١، مركز دراسات وبحوث المدينة المنورة ٢٠٠٥م، ص ٧١.

17) ينظر بالتفصيل : عارف أحمد عبدالغني، تاريخ أمراء المدينة المنورة ١هـ -١٤٧١هـ ، سلسلة كتب تواريخ المدن، دار كنان (دمشق) ص ٢٨٧.

18( )الرحلة ، ص٢٢٦ .

ومنها توجه إلى الشام قاصداً بيت المقدس[19]، في خمسة عشر يوماً بلياليها ، وقد مر ببعض المدن ومراكز التجمعات السكانية مثل تبوك[20] والعلا ومدائن صالح[21] وعقبة الصوان[22] ومعان[23] والبلقاء وأريحا[24] والطور[25] وترك معلومات مهمة عن كثير مما شاهده.. يهمنا منها هنا صورة المدينة المنورة في رحلته .

وصول ابن الصباح للمدينة المنورة

غالباً أن صاحب الرحلة رجع من اليمن إلى مكة ومنها إلى المدينة ولكنه لم يشر إلى ذلك ولم يذكر متى وكيف كان رجوعه إليها لأنه بعد أن أنهي ذكر أخبار اليمن قال "... ثم ننصرف إلى مدينة يثرب [26]... بين مكة وهذا الحرم (يقصد الحرم النبوي) ثمانية عشر يوماً وتسعة مراحل بالليل والنهار..."[27] فمن مكة إلى بطن مر[28] ومن بطن مر إلى مدارج على إلى خصائص إلى البزوة إلى بدر إلى وادى الصفراء إلى وادى الغزالة إلى وادى العقيق ثم ذي الحليفة ميقات أهل المدينة وتسمى أبيار علي إلى قبا إلى منزلة المصري باب المدينة المباركة والحجرة الشريفة "جئناها في تسعة أيام

---

19 ()الرحلة، ص ١٨٠.

20) تبوك: تقع بين وادي القرى والشام ،وقيل بين الحجر وأول الشام على أربعة مراحل من الحجر ،نحو نصف طريق الشام ،وهي حصن به عين ونخيل ، الحموي، ياقوت، شهاب الدين بن أبي عبد الله (ت. ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ط١ ، دار صادر (بيروت)، ١٩٥٥م.ج٢ ص ١٤.

21) والعلا بضم أوله وهو جمع العليا ، اسم لموضع من ناحية وادي القرى ،بينها وبين الشام ،نزل به النبي محمد صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى تبوك ،ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص ١٤٤.

22) تقع عقبة الصوان بين معان وذات حج ، وقد ذكر ياقوت الحموي أن الركب يجد فيها صعوبة في الإقامة بها ،ولا تطول مدة اقامته بها لعدم وجود الماء هناك. ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص ١٥٧.

23) معان: مدينة في طريق بلاد الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء . ياقوت: معجم البلدان ٥ج ص١٥٣.

24) هي البوابة الشرقية للقدس، وتبعد عن القدس حوالي ٣٧ كم شرقا ، وكانت في عصور السيادة الإسلامية من أكثر المناطق الزراعية خصوبة .

25)الطور : قرية صغيرة على الشاطئ الغربي لشبه جزيرة سيناء ،في الجهة الجنوبية الشرقية من خليج السويس ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ،ج٨ ص ١٢٥.

26) يثرب: اسم كان يُطلق على المدينة المنوَّرة قبل هجرة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم إليها عام ٦٢٢ م ، السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد، دار الكتب العلمية ط٤ ، ١٩٨٤م ، ج١ص١٥٦ وجاء ذكرها في القرآن :{ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) "الأحزاب آية ١٣" أما المدينة: فهي الاسم الذي اشتهرت به بعد الهجرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم والحديث الشريف عدة مرات منها قوله تعالى: ((ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله..)) (سورة التوبة آية١٢٠) وقوله صلى الله عليه وسلم للهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد حباً": ومزيد من التفاصيل عن أسماء المدينة ينظر: ياقوت ، معجم البلدان ،ج٥ص ٨٣.

27 ()الرحلة ص ١٦٢ .

28) من نواحي مكة بينها وبين البيت الحرام ١٦ميلاً وبينها وبين عسفان ٣٣ميلاً (سليمان عبدالغني مالكي ،طريق حجاج الشام ومصر ، مجلة الدارة ع شوال ، ١٩٩٢م ،ص١٣

بلياليها". [29]

ولعلنا نلاحظ التخبط عند ابن الصباح في وصفه لطريق الحجيج من مكة للمدينة . حيث نراه يقدم مرحلة على مرحلة أو يؤخر مرحلة على أخرى، ولا يذكر مراحل أخرى, لأن المعروف أن الطريق كان يبدأ من خروج الحجاج إلى بطن مُرّ [30] في ثلاث مراحل، وفي طريقه بئر عُسفان[31]،ثم خليص ، إلى بدر، ثم منها يرحل إلى الصفراء في مرحلة ويوجد بها عيون تجري وحدائق وأشجار[32]. وبعد ذلك إلى ذي الحليفة في ثلاث مراحل، ثم إلى المدينة الشريفة في مرحلة، وبعد الزيارة يرجع الحاج إلى الصفراء، ويأخذ بين جبلين في فجوة تعرف بنقب عليّ حتى يأتي الينبع في ثلاث مراحل، ثم يستقيم على طريقه المتقدم إلى مصر.[33]

وربما الخلط عند ابن الصباح سببه أنه لم يكتب رحلته إلا بعد أن تجاوز الستين[34] فضعفت ذاكرته ودون ما تذكره فقط, أو ربما أغفل ابن الصباح ذكر بعض المراحل لأنه لا يذكر إلا ذائعة الصيت في الخطورة، ولكن ماذا نقول في تقديمه وتأخيره لبعض المنازل إلا أنه ضعفت ذاكرته أو كتبها بعد انتهاء الحج.. وخروجه إلى بلاد أخرى نسي فيها ما مر عليه؛ فكان يتذكر ما اشتهر منها

---

[29]( ) الرحلة ص ١٦٢ . عبر ابن الصباح عن فرح المسلين بوصولهم للمدينة النبوية وتشوقهم بصورة ملفتة يغلب عليها الطابع الأسطوري فقال :".. والله لما أشرفت الجمال والنياق على وادي العقيق وراحت رايحة المدينة وقرب قبر الرسول فكنت تسمع لها تبكي وأنا لا أصدق حتى وصلنا وادي العقيق ، قال لي رفيقي أحمد الحداد من قليوجة يا حاج عبدالله أما ترى النياق والجمال كيف هي تئن وتبكي فقلت سبحان الله أحق هو ! قال لي انظر وترى فنظرت إليها فإذا هي تجد في السير وتئن وتبكي مثل بني آدم تسمع لها أنيناً مثل الباكي بالنحيب القوي سمعها القريب والبعيد فإذا رأوها الحجاج جدوا في السير وعلموا أن قد قرب قبر النبي (ص) فيستبشر بذلك الحجاج والله لقد رأيت دموع الجمال الكبار والصغار الذكور والإناث تئن مثل الوجع والدموع تنهمر على خدودها مثل المطر وما كنت نظن أن ذلك في البهائم حتى رأيت ذلك العجب في محبة الرسول (ص) وذلك أول ما رأيت من معجزات فضل البقعة الشريفة والنبي الشريف..." الرحلة، ص ١٦٢. ولعل هذه المبالغة الصارخة ، تعكس ميل الرحالة – في الغالب- إلى تجسيد الموقف الذي يعيشه أمام ناظرى قارئه.

[30]( ) من نواحي مكة بينها وبين البيت الحرام ١٦ميلاً وبينها وبين عسفان ٣٣ميلاً ، سليمان عبدالغني مالكي :طريق حجاج مصر والشام ،ص١٣.

[31]( ) منهل من مناهل طريق الحاج بين الجحفة ومكة ، وهي من مكة على مرحلتين ومنها الى بطن مر ٣٣ميلاً (ياقوت : معجم البلدان،ج٤ص٢٢؛ الجزيري ، عبد القادر بن محمد بن القادر (ت. ٩٤٤هـ): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر، ط١ (الرياض)، ١٤٠٣هـ ص١٢٥٢)

[32]()الجزيري ، عبد القادر بن محمد بن القادر (ت. ٩٤٤هـ): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، ج١٤ ص ٣٨٨.

[33]()العطار ، أبو عبد الله العطار، محمد بن محيي البكري العطار (ت. ٨٤٠هـ): منازل الحاج، مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٠٨ جغرافياً، ميكروفيلم ٤٦٢٥٥ ،ورقة ٤،٥؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت. ٩٠٢هـ): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٩٨م. ، ج٢، ص ٢٧٣- ٢٧٤.

[34]) قال ابن الصباح"... واعلم أن كاتب هذا الكتاب الحاج المذكور هو شيخ كبير من أعمار الستين إلى السبعين وكتبه بالأميرية (النظارات) من ضعف البصر .." الرحلة، ص ٢٦٦.

سواء بالوعورة أو بوفرة المياه.

نشأة المدينة المنورة وبنايتها في ضوء الرحلة

ثم استطرد في ذكر أول من بنى مدينة يثرب، وقصة تبع أبي كرب مع أهل مكة [35] والمدينة[36] . بتوسع ومفاد ذلك –كما يروي ابن الصباح – أن بناء المدينة يعود إلى أسعد أبو كرب التبعي وهو من التبابعة ، وذلك لما مر بالمدينة المنورة وكان معه أربعمائة عالم متفقين ألا يخرجوا من المدينة المنورة فسألهم تبع عن سر ذلك الاتفاق فقالوا: إنا نجد في كتابنا أن نبياً اسمه " محمد " أو " أحمد " هذه دار هجرته فنحن نقيم هنا لعلنا نلقاه فنؤمن به نحن أو أولادنا، فأراد تبع أن يقيم معهم فبنى لكل واحد من العلماء الأربعمائة داراً واشترى له جارية وزوجها منه ثم أعطى كل واحد منهم مالاً جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامه جاء فيه ما نصه حرفياً: شهدت على أحمـــد أنـــه رسول من الله باري النسم فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عـــم وختمه بالذهب ودفعه (أي أعطاه) إلى كبير العلماء وسأله أن يدفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن أدركه هو أو أولاده أو أولاد أولاده، وبنى للنبي صلى الله عليه وسلم داراً ينزلها إذا قدم المدينة المنورة[37]، فتداول الدار الملوك من العلماء وأبنائهم إلى أن صارت في نوبة أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم[38]، وهو من أولاد العلماء الذين تولوا حكم المدينة المنورة، وأهل المدينة المنورة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء، فعلى هذا إنما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزله نفسه المملوك له بطريق الهبة أو الهدية من تبع ملك حمير لا منزل غيره، وإنما كان أبو أيوب الأنصاري حارساً للدار وحافظاً لها فقط لا غير[39]، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزله حتى ابتنى مسجده صلى

---

35) هو ملك اليمن أسعد ابو كرب ،كان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة، وكان قد مر بها في بدأته فلم يهج أهلها، وخلَّف بين أظهرهم ابنا له، فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل فكان أول من كساه: انظر القصة بالتفصيل عند ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت. ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، الأجزاء ١٧- ١٨، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، (القاهرة)، ١٩٩٨م. ، ج١ص١٨

36) ينظر : الفاسي، (ت. ٨٣٢هـ): شفاء الغرام في أخبار سلطنة البلد الحرام، دار إحياء الكتب (القاهرة)، ١٩٥٦م ص١٩٤،ص ٣٠٣.

37) والخبر أيضاً عند : أبي بكر بن الحسين بن عمر المراغي : تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، تحقيق: د. عبد الله العسيلانط١/١٤٢٢هـ ص ٥٧-٦٢.

38) المزيد : نور الدين علي بن أحمد السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ج٢ص٧٣٢

39) يشير أحد المتخصصين في تاريخ المدينة إلى أن الإمام السهيلي ذكر أن هذه الدار آلت بعد أبي أيوب الأنصاري إلى مولاه " أفلح " وأن أفلح هذا باعها إلى المغيرة بن عبد الرحمن بألف دينار ثم اشتراها الملك شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أخي نور الدين الشهير وبناها مدرسة سميت بالمدرسة الشهابية نسبة إليه. وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري أعيد بناؤها بصفة مسجد ولاتزال إلى الآن بهذا الشكل وتعرف باسم زاوية الجنيد كما في تعليقات العلامة المرحوم الشيخ إبراهيم فقيه على خلاصة الوفاء، وتعرف اليوم ببيت البالي، : أحمد ياسين الخياري: تاريخ معالم المدينة

الله عليه وسلم[40]. وحتى ينأى بنفسه عن صحة ما قاله عن بداية المدينة أو عدم صحته قال :"... يرفع الرواية بصحة نقلها عن محمد ابن الصباح..." [41]

جغرافية المدينة المنورة[42]

تطرق ابن الصباح إلى جغرافية المدينة وقال : "... مدينة يثرب في وسط النخل عن يمين وشمال تسقى بماء العين الزرقاء , وماء الآبار وتطعم الكبار والصغار . ومدينة يثرب بين جبلين جبل أحد وجبل رومة الحمراء التي تلي مسجد القبلتين وبين بير عثمان وعرض ما بين الجبلين مسيرة يوم , ومدينة يثرب دورة سورها وحفيرها ضحوة من النهار..."[43]. وربما يكون من المفيد أن نأتي هنا بقول ابن حوقل في الصدد نفسه حيث قال ابن حوقل أن المدينة :"... أقل من نصف مكة , وهي في حرة سبخة الأرض , ولها نخل كثير , ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار , يسقون بها العبيد وعليها سور والمسجد في نحو وسطها , وقبر النبي (ص) في شرقيه قريبا من القبلة . وأحد جبل في شمالي المدينة , ووادي العقيق فيما بينها وبين الفرع, والفرع من المدينة على أربعة أيام, في جنوبيها والعقيق واد من المدينة في قبلتها على أربعة أميال في طريق مكة , وأعذب ماء في الناحية هي آبار العقيق ..."[44] وهنا يجب توضيح الأمر بشيء من التفصيل , وهو أن جغرافية المدينة المنورة التي شاهدها ابن حوقل وابن الصباح من بعده – أو حتى سور المدينة– لم تكن ثابتة على مر العصور , فعندما وصل المسلمون المهاجرون من مكة، نزلوا في بيوت إخوانهم الأنصار (الأوس والخزرج) أول

المنورة قديماً وحديثاً، تعليق عبيد الله أمين كردي، مطابع دار العلم ، ط١ ، ١٩٩٠م ص ١٦٧ – ١٦٨.

40) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢ ص١٥٢-١٥٥؛ الرحلة ، ص١٦٣-١٦٦؛

41) الرحلة ص ١٦٤، وينقل الدكتور محمد بنشريفة عن مقدمة ابن خلدون (ط شبوح ص ٥٥٨) أن محمد ابن الصباح المرفوعة إليه الرواية هو من رواة الأخبار والأحاديث ، ولكنه ضعيف جداً، (يراجع هامش ٢ من الصفحة المذكورة)

42) تذكر المصادر التاريخية أن المدينة المنورة (يثرب) ، أسست أول الأمر في منطقة تجري إليها مجموعة من الأودية تنتهي إلى مجرى واحد، وهي في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي، وتبعد عنه حوالي ٥ كم . وبسبب كثرة المياه هناك ، وتحولها إلى سبخات تتجمع حولها الهوام ، استوخمها سكانها فيما بعد، فتحولوا عنها إلى منطقة (زهرة)، وهي جنوبي المسجد النبوي حالياً، ما بين قربان وقباء، ومع تزايد عدد السكان امتدت رقعة المكان إلى بطحان، وإلى مذينيب شرقاً وأطراف رانوناء شمالاً. ومن القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، بدأت دفعات من اليهود تتقاطر إليها وتستوطن مواقع غير متباعدة على أطراف الوديان، وتترس بعضهم بتلال الحرة الغربية، وتقول بعض الروايات : إنهم نزلوا في غير هذه المواقع بداية، ولكن تحولوا إليها فيما بعد، إذ استقر بنو قريظة في وداي مهزور، وبنو النضير في وادي بطحان، وبنو قينقاع في الوسط ، ولما وفد الأوس والخزرج نزلوا أطراف حرة واقم، وامتدوا غرباً إلى بطحان وإلى حرة الوبرة، على شكل مجموعات متقاربة حيناً ومتباعدة حيناً آخر. عبدالله يوسف الغنيم: أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، منشورات وحدة البحث والترجمة (جامعة الكويت) ١٩٨١م ص ٣٧

43) الرحلة ، ص١٧٥-١٧٦

44) ابن حوقل ، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧) : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة (بيرت) د.ت ج١ص ٣٧-٣٨.

الأمر، ثم بنوا مساكن لهم حول المسجد النبوي، الذي توسط المنطقة العمرانية السابقة تقريباً، ثم في مناطق أخرى بين أحياء الأنصار، ثم آلت إليهم بعض مساكن اليهود الذين تخلصت المدينة منهم، وبذلك أخذت المدينة موقعها النهائي قديماً. وخلال العصور اللاحقة وإلى يومنا هذا تقلص حجم المدينة، واتسع مراراً، ولكن وجود المسجد النبوي فيها جعل موقعها ثابتاً[45]، وجعل الأحياء والمساكن تتوزع حوله في حلقات متوالية، وفي الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: جبل عير جنوباً، وجبل ثور شمالاً [46].. كما أن هذا الموقع الجغرافي كانت تتغير قيمته وأهميته على مر العصور، فتارة يجعلها تعيش فترة نمو وازدهار والقيم بوظائف جديدة، كما كانت زمن ابن الصباح , وتارة اخرى عندما تضعف اهميته يؤدي إلى توقف نمو المدينة وتفقد الكثير من وظائفها، كما كانت حين شاهدها ابن حوقل وهذا التدهور لا يطول؛ فكل مدينة تحاول ان تنمو وتستعيد مجدها وهذا يعني ان موقع المدينة المنورة الجغرافي مر بتطور تاريخي طوال القرون الماضية، على رحلة ابن الصباح , لأن الزمن بين ابن الصباح وابن حوقل اربعة قرون تقريبا , كما يتضح لنا ان القرب من مكة المكرمة يمثل أهم عناصر موقع المدينة المنورة، حيث ارتبطت المدينتان معاً منذ بزوغ فجر الاسلام. علاوة على أن الأهمية الزراعية للمدينة كانت واضحة في الوصف الجغرافي لابن حوقل وابن الصباح.

المناظرات العلمية بشأن التفضيل بين مكة والمدينة

ومما لاحظه ابن الصباح أن علماء مكة وعلماء المدينة يختصمون في فضل بقاع مكة وبقاع المدينة، فأهل مكة يقولون بقعتنا أفضل بشرف البيت الحرام وأهل المدينة يقولون بقعتنا وتربتنا فيها أعضاء رسول الله (ص) أشرف الخلق ، وذكر أن ذلك تسبب في مجادلة كثيرة ومنازعة عظيمة بين

---

[45]) صالح أحمد العلي : الحجاز في صدر الإسلام، دراسات في أحواله العمرانية والإدارية ، مؤسسة الرسالة (بيروت) ١٩٩٠م ص ٢٠، ٦٦.

[46]) فإذا كان العهد النبوي شهد ظهور مجموعة عمرانية وسط هذه التجمعات السكنية آنفة الذكر، وأصبح المسجد النبوي مركز المدينة، وازدحم العمران حوله، ثم انتشر في الفراغات الواسعة بين الأحياء. فإنه في العصر الأموي ظهر حي كبير على امتداد وادي العقيق، فيه قصور وأبنية تتخللها حدائق جميلة، وامتد العمران بين المسجد وقباء. ـ وفي العصر العباسي أخذت المساحة بالتقلص منذ منتصف القرن الثالث في دائرة لا يزيد قطرها عن كيلين من الأرض، وبني حول العمران سور طيني بسبب اضطراب الأمن وكثرة الفتن، وقد جدد السور نفسه بعد قرن من الزمن دون زيادة. ـ وفي منتصف القرن الهجري السادس تضاعف العمران، وبني سور آخر امتد غرباً أكثر من ضعف السور السابق، وهذا يدل على أن الكتلة السكنية حول المسجد النبوي قد اتسعت، وأن العمران في المناطق البعيدة تضاءل، وتحولت تلك المناطق إلى قرى مستقلة وخاصة قباء. ـ وتغيرت المساحة بعد ذلك امتداداً حيناً وتقلصاً حيناً آخر حسب الأوضاع الأمنية والاقتصادية، وظهرت مساكن خلف السور.حمد الجاسر : رسائل في تاريخ المدينة، نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ، دار اليمامة (الرياض) ١٩٧٢م ص ٢٢، ٤٢، ٤٤.

علماء البلدين [47]. وينقل ابن الصباح صورة من صور هذه المناقشات العلمية بين فقهاء البلدين في هذا الصدد والتي لا يخفى دلالاتها فيقول :"... سمعت أهل مكة يبايعون ويسلمون لأهل المدينة بالتربة التي لصقت بأعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وغيرها لا يسلمون به, فقال أهل المدينة سلمتم في التربة اللاصقة بأعضاء (ص) . وهذا مرادنا منكم ونحن نقول أن التربة لاصقة بعضها ببعض إلى آخر الحرم فحرمنا أفضل وبقي بينهم مجادلة كثيرة ومنازعة عظيمة..." . [48]

ونلمح من حديث ابن الصباح أنه كان من الفريق المؤيد لأفضلية المدينة على مكة ظهر ذلك في أكثر من موضع في رحلته لعل أبرزها قوله :" .. نذكر فضل الحجرة الشريفة والبقعة الفاضلة المشرفة على جميع بقاع الأرض التي ضمت أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم..."[49]. علاوة على أنه يفرد المساحة لآراء أهل المدينة على خلاف ذلك مع علماء مكة . [50]

والطريف أن الفقهاء كانوا يحيون المجالس السلطانية لسلاطين وأمراء المماليك بمثل هذه المناقشات التي تتعلق بالمفاضلة بين مكة والمدينة , ففي زمن ابن الصباح –على سبيل المثال– كتب علي بن يوسف الزرندي(ت٧٧٢ه/ ١٣٧٠م (رسالة صغيرة في المناظرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وعنوانها :" المناظرة بين مكة والمدينة" [51] وكتبت بأسلوب أدبي وبلاغي مميّز ؛ يهدف منه إلى مجموعة من الغايات التي استنبطتها صور الرسالة البيانية وكناياتها الخفيّة ، وكان الأمير "يلبُغا" العمري الخاصكي ، آنذاك صاحب سلطة نافذة وتصرّف مباشر في العزل والتولية ، ولما كان قد انتصر في إحدى جولاته ؛ اجتمع حوله القضاة والولاة للتهنئة وكان منهم المؤلف شيخ المحدّثين بالحرم النبوي الشريف ، فكان أن أنشأ هذه الرسالة وبثّ فيها الحال والحالة ، وجعل المدينتين المقدّستين تنطقان بالمفاضلة وتتنافسان في شرف المجاورة ، حتى تصلان إلى ضرورة الحكم بينهما ؛

---

47 ( )الرحلة ص ١٦٨- ١٦٩، وانظر المسألة بالتفصيل عند ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨هـ): المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ٢٠٠٦م ، "فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم: البيت الحرام "مكة" المسجد الأقصى، المدينة (يثرب) ، ج٢ ص ٧٨٨ – ٧٩٨.

48) الرحلة، ص ١٦٩.

49) الرحلة ، ص ١٦٨.

50) وأنهى ابن الصباح هذا الموضوع باستدلال أهل المدينة متفقًا معهم مؤيدًا أدلتهم وكأنها وجدت قلبًا خاويًا فتمكنت فقال :"... قال المؤلف : ولقد أتى أهل المدينة بقول رسول الله (ص) وقد خرج من مكة ومعه أبو بكر الصديق فوقفوا عند الحجر الذي خارج مكة بباب اليمن فرد وجهه المبارك ينظر به إلى مكة متأسفًا على فراقها لأنها وطنه وموضع ولادته (ص) وأرض أبيه وفيها مسقط رأسه . فقال محبة فيها وتأسفًا عليها : اللهم كما أخرجوني من أحب البقاع إلي فأسكني أحب البقاع إليك فأمره الله بالهجرة إلى مدينة يثرب فأثبت أهل المدينة أنها أحب البقاع على العموم وعلى مكة على الخصوص..." الرحلة ص ١٦٩.

51) علي بن يوسف الزرندي (ت : ٧٧٢هـ)، المناظرة بين مكة والمدينة، دار الأمين – القاهرة، ١٩٩٣م ص٦-١١٨م

وهنا تختتم المناظرة بقصيدة يعرض فيها المؤلف مطالبه وحال المدينتين المقدستين وما آلتا إليه من ضيق العيش والتقتير حتى ضِيق بالكبير والصغير.[52] وبعد رحلة ابن الصباح بزمن كتب الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي , رسالة بعنوان " الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة مما يدل على استمرار أمر هذه المنا قشا ت طوال عصر دولة المماليك [53] .

وفي واقع الأمر؛ لم يفصل النزاع في الخلاف الواقع في أيّهما أفضل طوال العصر المملوكي[54] , و كثير من العلماء قد توقف عن المفاضلة واقتصر على حكاية القولين وأدلتهما أو عقد المناظرة بينهما.. [55]

ولعلنا نلمح في قول ابن الصباح ما يؤكد ذلك حين قال أن البلدين مشتركين مصداقًا لحديث "لا

---

[52]) الزرندي : المناظرة بين مكة والمدينة، ص٦- ١١٨.

[53]) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي : الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة، تحقيق وتعليق: محمد زينهم عزب ، دار الأمين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م . والفروق التي ذكرها السيوطي هي :
أحدها:أن على قاصد حرم مكة الإحرام بحج أو عمرة ندبا أو وجوبا وليس ذلك في المدينة.
الثاني: أن في صيده وشجره الجزاء بخلاف حرم المدينة على الجديد وعلى القديم فيه الجزاء بسلب القاتل والقاطع بخلاف حرم مكة فإن فيه الدم أو بدله فيفترقان أيضا.
الثالث: لا تكره الصلاة في حرم مكة في الأوقات المكروهة بخلاف حرم المدينة.
الرابع: أن المسجد الحرام يتعين في نذر الاعتكاف به بلا خلاف وفي مسجد المدينة قولان.
الخامس: لو نذر إتيان المسجد الحرام لزم إتيانه بحج أو عمرة بخلاف ما لو نذر إتيان مسجد المدينة فإنه لا يلزمه إتيانه في الأظهر.
السادس: الصلاة تضاعف في المسجد الحرام زيادة على مضاعفتها في مسجد المدينة مائة صلاة كما في حديث أخرجه أحمد بسند صحيح.
السابع: أن التضعيف في حرم مكة لا يختص بالمسجد بل يعم جميع الحرم ، وفي المدينة لا يعم حرمها ، بل ولا المسجد كله ، وإنما يختص بالمسجد الذي كان في عهده* صلى الله عليه وسلم.
الثامن: صلاة التراويح لأهل المدينة ست وثلاثون ركعة وليس ذلك لأهل مكة ولا غيرهم.*
التاسع: تكره المجاورة بمكة ولا تكره بالمدينة بل تستحب.

[54]) مثلا : العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية (القاهرة)١٩٩١م
ج ١ص ٣٩-٤٣ رجح تفضيل مكة من اثني عشر وجهاً، وهو نفس الامر الذي ذهب إليه الامام السيوطي حيث رأي مذهبه بتفضيل مكة المكرمة على المدينة المنورة ، السيوطي: الحجج المبينة ص٨٤ وينظر أيضًا: ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي أبو محمد: المحلى بالآثار ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية (بيروت) ٢٠١٥م ص ٢٧٩-٢٩٠ .

[55] (راجع بالتفصيل : ابن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٣، تحقيق عبد العزيز بن باز، وغيره، ط١، مكتبة مصر (القاهرة)، ٢٠٠١م
ج٣ص ٦٧ .

تشد الرحال إلا لثلاث" "... فظهر الاشتراك في الفضل ولكن المبالغة لا تزال والله أعلم ..."[56] . ومن ناحية أخرى يدل حديث ابن الصباح على ان حلقات العلم في المسجد النبوي قد استمرت على امتداد عمر دولة المماليك وكانت أشبه بجامعة مفتوحة فيها شيوخ مقيمون يديرون حلقاتهم لسنوات طويلة ويتخرج منها العشرات من طلاب العلم يتحول معظمهم إلى شيوخ في المدينة وفيها شيوخ زائرون قدموا المدينة في زيارة قصيرة أو جوار محدود وكانت شهرتهم قد سبقتهم إلى المدينة، ومثلما تتعدد شخصيات شيوخ الحلقات وبلادهم تتعدد الموضوعات التي يدرسونها والعلوم التي يفيضون بها على مستمعيهم ويجيزون لمن يبرع في استيعابها[57] ومرد هذا إن عصر المماليك شهد نهضة علمية واسعة تمثلت في إنشاء العديد من المؤسسات العلمية مثل المدارس، والكتاتيب وحلقات الدرس في المسجد النبوي.[58]

احياء ليلة الجمعة بالمسجد النبوي :

يفهم من حديث ابن الصباح أن أهل المدينة والمجاورين[59] والزائرين كانوا يعتادون على إحياء ليلة الجمعة بالمسجد النبوي , بسبب فضلها وفضل الصلاة على النبي فيها , فكانوا يجتمعون بالمسجد النبوي , وبالخصوص أمام الروضة :"...ويقولون الصلاة والسلام عليك يا رسول الله حتى تصم أذنك من كثرة الصلاة والصياح ..."[60] , وهو ما يعطينا صورة لمظاهر اهتمام المسلمين الساكنين بالمدينة والوافدين عليها بيوم الجمعة . وبطبيعة الحال لم يكن احياء ليلة الجمعة في المسجد النبوي مقصورا على الصلاة على النبي , فالمسجد النبوي كان –ولا يزال– من أكبر مراكز العلم في المدينة، ونشطت حلقات العلم فيه بشكل ملحوظ زمن المماليك ويشير السخاوي أن هذه الحلقات شملت الفقه والحديث والمصطلح والتفسير واللغة علاوة على العلوم العقلية وليس فقط النقلية وأنها شملت جميع أنحاء المسجد النبوي الشريف [61] وكانت ترسل إلى مكتبته نسخ من مؤلفات المؤلفين من شتى

---

56) الرحلة، ص١٦٩

57) عبد الباسط بدر : الحياة الثقافية في المدينة المنورة، ص ٥٤.

58) خالد محسن الجابري : الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة والمدينة المنورة، ٢٠٠٥م، ص ٤٦، ١٦٨.

59) المجاورون: وهم من أكبر شرائح مجتمع المدينة والتسمية مأخوذة من الجوار، والمجاورة ، وتعني البقاء في مكة والمدينة بجوار الحرمين، لفترة غير محدودة تنتهي بخروجه من إحدى هاتين المدينتين أو الوفاة. وقد شهدت هاتان المدينتان المقدستان قدوم أعداد كبيرة من المجاورين إليها. وخاصةً من مصر والشام والعراق والمغرب واليمن والهند، وفارس، وبلاد ما وراء النهر. ومن بين المجاورين علماء، وطلبة علم، وأصحاب حرف ومهن مختلفة، وأرباب الوظائف، كالأئمة والقضاة المعينين من قبل السلطة المركزية.

60) الرحلة، ص ١٧٠

61) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، (بيروت) ١٩٩٣م ، ج١ ص١١، ٦٤ ، ١٣١، ١٣٣، ١٤١، ١٤٢.

بقاع الأرض. ،وكانت حلقات العلم لا تنفض بسبب الإجازات العلمية التي تمنح للزائر أو الحجاج الذين يأتون جماعات وأفراد في كل وقت وحين للمدينة غرض الزيارة أو الدرس بعد تحصيل علم من العلوم، وكانت تُقدَّم لهؤلاء في شكل فردي بعد أن يتحقق أستاذهم من تمام تحصيلهم[62]. وغالباً – كان لليلة الجمعة نصيباً من مثل هذه الحلقات العلمية التي تميز بها المسجد النبوي في العصر المملوكي[63] .بجوار ما ذكره ابن الصباح.

الحجرة النبوية وترتيب الزيارة وتنظيمها

ومن جهة ثانية, أخذ ابن الصباح يستطرد في وصف شعوره وشعور باقي الحجاج والزائرين المسلمين حين وصلوا الحرم النبوي الشريف واقتربوا من الحجرة النبوية ورأوها رؤي العين , وتمنى أن يموت أمامها لأنها ؛ "... التربة التي وطئتها أقدامه وأقدام أزواجه وأقدام ذريته ومواضع مساكنهم وتحن لهم قلوبنا وتشتاق أفئدتنا فكيف من رأوه بالعين ولم يؤمنوا به ..."[64] . ولا شك أن هذا الأمر يجب ربطه بالواقع المعيشي والديني الذي كان عليه المدجنين على عكس المسلم الذي يعيش في كنف دولة المماليك مثلا ويستطيع الذهاب للحجاز وقتما شاء دون قيود .

على أية حال , ألقى ابن الصباح مزيداً من الضوء على الصورة التي كانت عليها الحجرة النبوية في زمنه , وبدأ بسرد مبسط لتاريخ الحجرة , التي هي بيت أم المؤمنين عائشة وكيف صارت قبرا للرسول (ص) والشيخين موضحاً أن علة دفنه صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة دون غيرها من أمهات المؤمنين هو أنه لما كانت ليلتها وبينما كان النبي مريضا في مرضه الأخير وتوفي صلوات الله عليه فكانت وفاته في بيتها , وذكر حديث عائشة في هذا الصدد [65] لكنه لا يتقيد بلفظ

---

[62]) خالد محسن الجابري : الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة والمدينة المنورة، ٢٠٠٥م، ص ٤٦؛ عدنان علي الفراجي : الحياة الفكرية في المدينة المنورة، الدار العربية للموسوعات، (بيروت)، ٢٠٠٦م، ص ٥٤.

[63]) عدنان علي الفراجي : الحياة الفكرية في المدينة المنورة، ص٧٠؛ علي السيد علي : الحياة الثقافية في المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك، دار عين (القاهرة) ١٩٩٤م ص ٢٤٤-٢٤٧.

[64]) الرحلة، ص١٧١.

[65]) لفظ حديث عائشة الثابت بالإسناد الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي على صدر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.عن عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَتَعَذَّرُ فِي مَرَضِهِ: أَيْنَ أَنَا اليَوْمَ ؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا ؟ اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي، قَبَضَهُ اللَّهُ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَدُفِنَ فِي بَيْتِي) .البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه ، المعروف ب"صحيح البخاري" نشر علي حسن عبد الحميد ، دار الزهراء(القاهرة) ١٩٩٣م (حديث رقم ١٣٨٩)؛ مسلم ابن الحجاج القرشي : صحيح مسلم بشرح النووي، دار المعرفة (بيروت) ط٣ ١٩٩٦م (حديث رقم ٢٤٤٣(وفسر ذلك شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ما بين الحاقنة والذاقنة هو ما بين السحر والنحر، والمراد أنه مات ورأسه بين حنكها وصدرها صلى الله عليه وسلم ورضي عنها ". ابن حجر العسقلاني : فتح الباري،ج٨ ص ١٣٩.

الحديث –على عادته– وإنما يوردها بمعناها[66] . فيشير أن النبي لما مات بقي الصحابة باهتين حائرين أين يحفرون قبراً له حتى جاء عمه العباس فقال مالي أراكم لا تحفرون لابن أخي قبراً فقالوا هذا نبي ولا يدفن مع الناس في البقيع , قال العباس : أنا سمعت من ابن أخي هذا وأشار إلى النبي (ص) أنه قال :" قبر كل نبي حيث هلك , وابن أخي هلك على فراش عائشة [67]. وهكذا رغم أن ابن الصباح يوضح لنا تاريخ الحجرة النبوية إلا أن ما ذكره جاء بصورة اختبار لمعلوماته في السيرة !.

المهم أن ابن الصباح بعد أن انتهى من الجانب التاريخي, تطرق لوصف الروضة وما يجاورها من قبر النبي[68], كما أكمل ابن الصباح كتابه بوصف المسجد النبوي الشريف أيضاً، والحجرة الشريفة، وكالعادة دعمه بمصور للروضة الشريفة[69] التي قال عنها :"...والروضة المقدسة[70] التي فيها رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر مبنية عليهم لا يصل إليها أحد إذ القبة مطبقة عليهم بالمرمر المنوع منه أبيض وأحمر وأكحل وأخضر ..." وأضاف أن سقف قبة الروضة مشغول باللوح والمسمار وفوقه ألواح الرصاص مضروبة بالمسمار لا يدخلها بشر ولا يصل إليها ريح ولا شمس ولكن للزائرين لها قبالة رأسه (ص) خارج البنيان تابوت من عود اليمن مزين بالذهب والفضة مملوء بالمسامير المزينة بالفضة والذهب وقبالة رأس أبو بكر مسمار من فضة مقرون في الحائط علامته وقبالة رأس عمر سارية من مرمر أخضر علامته كذلك كل هذه العلامات خارج الحائط

---

66) ففي هذا الشأن يقول " وقالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله (ص) ورأسه تحت ذقني وهو جالس بين ذراعي" الرحلة، ص ١٧١؛ ولم يلتزم بنص الحديث ولم يذكر إسناده .

67) الرحلة، ص ١٧١.

68) من المعلوم أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بُنِيَ قبل موته فلم يُبْنَ على القبر ، ومن المعلوم أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدفن فيه ، وإنما دفن في بيته المنفصل عن المسجد ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك كتب إلى أميره على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز في سنة ٨٨ من الهجرة أن يهدم المسجد النبوي ويضيف إليه حجر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، فجمع عمر وجوه الناس والفقهاء وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد فشق عليهم ذلك ، وقالوا : تَرْكُها على حالها أدعى للعبرة ، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة ، كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجداً فكتب عمر بذلك إلى الوليد فأرسل الوليد إليه يأمره بالتنفيذ فلم يكن لعمر بُدٌّ من ذلك .ينظر : الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك ،دار الفكر (بيروت)د- ت ج٥ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ابن تيمية : الجواب الباهر لجواب الباهر في زوار المقابر، تحقيق سليمان بن عبدالرحمان الصنيع، عبدالرحمان بن يحي المعلمي اليماني، المطبعة السلفية (القاهرة) د.ت، ق٩ص٢(؛ابن كثير ، البداية والنهايةج٩ص ٧٤ ـ ٧٥ ؛ ابن عبد الهادي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت: ٧٤٤هـ(: الصَّارِمُ المُنْكِي في الرَّدِّ عَلَى السُّبْكِي، تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني، مؤسسة الريان، (بيروت).٢٠٠٣م ص١٣٦ـ ١٣٧.

69 ( )الرحلة، ص (١٦٨ – ١٧٠ -١٧١).

70) جدير بالذكر أنه منذ نحو ١٤٠٠ عام لم يظهر على الروضة المشرفة أي تغيير أو زيادة أو نقصان، إلا تزيين بالرخام ميزها عن بقية مساحات المسجد، كسيت أعمدته بالرخام طلي بماء الذهب، وضمت أطرفها معالم عدة، كالحجرة الشريفة الواقعة بالجنوب منها التي تحتضن في باطنها قبر الرسول وصاحبيه ومحرابه الذي كان يصلي فيه ومنبره، إضافة إلى عددٍ من الأعمدة المختلفة عن بقية المسجد بما كسيت به من رخام، وحاجزٌ نحاسي يفصل بين مقدم المسجد والروضة أقيم عليه مدخلان يكتنفان المحراب النبوي.

والحجرة دائرة بالقبة متسعة على قدر اثنى عشر قدما مبنية بالخشب على صنعة نوع الشباك.

تنظيم زيارة قبر النبي وصاحبيه كما رآه ابن الصباح .

في هذا الصدد أشار ابن الصباح أنه شاهد الحجرة النبوية ولها بابان بهما أقفال الحديد وتفتح للزائرين في أوقات الصلوات يدخلون "... ويقفون قبالة تابوت الرسالة الذي هو قبالة رأس رسول الله (ص) ..." يسلمون ويدعون الله كل حسب حاجته وفقهه ولغته , ثم بعدها يتجهون إلى قبالة رأس أبي بكر قبالة مسمار الفضة ويسلمون ويدعون الله بما تيسر ثم ينتقلون إلى رأس عمر ويدعون بما تيسر يهتدون بالعلامات خارج الحائط , ثم إذا قضى الناس الزيارة في الوقت المحدد لها يقوم خدام الحجرة النبوية بإغلاقها وعلة ذلك كما يذكر صاحب الرحلة "... وهذا للحرمة , وخوفًا من الظُّلام الخوارج الارفاض..."[71] وذلك يرجح أن خطر الرافضة وعدواتهم للشيخين كان ما زال مستمراً وقد فطن ابن الصباح لذلك حين ذكر أن أمر زيارة الحجرة الشريفة يحتاج للضبط والحرز والحفظ من الطوائف المبغضين للصحابة الأخيار فلا يصل إليهم "إلا من يكون من أهل الخير ولا يصل إليهم الأشرار ولهذا حجبوا بالبنيان المشيد والحرز بالنظّار والخدام الذين لا يغفلون عن أحد إذا تأخر في الحجرة حتى ليخرجونه بالدفع والضرب بالقضبان ".[72]

علاوة على ذلك كان من ضمن الاجراءات الأمنية داخل الحرم النبوي والتي شاهدها صاحب الرحلة أن الطواشية خدام المسجد النبوي وسدنته، يدفعون المثقلين في الزيارة عند الروضة، يضربونهم بالقضبان ويقولون: أخرج رحم الله عبداً زار وانصرف[73]. ولدينا نص للسخاوي يوضح يؤكد ما رواه ابن الصباح ويزيد عليه رصد أهمية الأغوات [74] في هذا الصدد وهو أن دورهم كان "... حفظ المسجد نهاراً ومباشرة قفل أبوابه والمبيت فيه لحراسته ما هو الأصلي في ابتكارهم وتنزيل القناديل وتعليقها للتعمير والوقد وغسلها أو مسحها وإسراج ما يوقد منها سحرا والدوران بعد صلاة العشاء بالقناديل لتفقد من يخشى مبيته ويرجعون عليه بالمنع ولا يبيت فيه إلا الفراش لإطفاء القناديل وفتح الأبواب للمؤذنين وكنس المسجد والروضة والحجرة كل جمعه مع مسح الجدار كل سنة وفرش بساط أمير المدينة.."[75]. وهذا يعطينا صورة للدور التأميني والخدمي للطواشية أو الأغوات في

---

71) الرحلة، ص١٧٤.

72) الرحلة، ص ١٧٤.

73 ()الرحلة ص ١٧٤ .

74) جمع آغا وهم خدام المسجد النبوي عنهم ينظر : عبدالرحمن الأنصاري : تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب ، تحقيق محمد العروسي المطوي ، نشر المكتبة العتيقة (تونس) ١٩٧٠م، ص ٥٣-٥٤.

75) السخاوي : التحفة اللطيفة ج١ص ٦١-٦٣

المسجد النبوي .

المحراب والمنبر النبوي

ومما تناوله ابن الصباح في رحلته خبر محراب المسجد النبوي , وذكر أن بين الحجرة النبوية التي فيها قبر النبي وبين الروضة ومسجد الرسول والمحراب عشر خطوات , كما أفاد أن المحراب معطل لا يصلى فيه أبداً ولكن المنبر يخطب عليه يوم الجمعة . ثم ترك لنا وصفاً لزيارة المسلمين المحراب والمنبر النبوي مبيناً أنه على الرغم من أن "... محراب النبي (ص) معطل لكنه يزار وقدام المحراب حفيرة يجعل الزائر رجليه فيها ويقبل أين كان النبي (ص) يجعل رجليه ويزور المنبر الذي على موضع الجذع الذي حن لرسول الله (ص) والذي كان يخطب عليه قبل صنع المنبر لرسول الله (ص) فأمر النبي(ص) أن يجعل المنبر على الجذع حتى سكن الجذع عن الحنين فهو اليوم المنبر يخطب عليه إلى يوم القيامة..."[76]. هذا النص الذي اقتبسناه من ابن الصباح يوضح عدة أمور منها : أن في زمنه لم يكن يصلى في محراب النبي ولكن المنبر كان يستخدم لإلقاء خطبة الجمعة, فقط من ناحية , ومن ناحية أخرى بين لنا أن أصل المنبر هو الجذع الذي كان يخطب عليه النبي مشيراً أنه صار منبر المسجد ليوم القيامة من ناحية ثانية , ومن ناحية ثالثة اعطانا صاحب الرحلة صورة لحرص المسلمين على زيارة المحراب والمنبر وليس الروضة أو القبر[77] فقط بل كل موطئ قدم للنبي المختار .

حكام المدينة

وفي إطار اهتمامه بالحياة الاجتماعية في المدينة المنوّرة تعرض ابن الصباح لعناصر المجتمع وفي مقدمتهم الأمراء، وهم حكام المدينة الشريفة ومدبرو أمورها[78]،. فقال ابن الصباح أن أهل المدينة من ذرية الحسين بن على بن أبى طالب [79]والمقصود بأهل المدينة هنا أشراف المدينة الذين كانوا من بني الحسين[80] وقد استقلوا بها عندما تولى أمرها طاهر بن مسلم من أحفاد الحسين سنة

---

[76]) الرحلة ص١٧٤-١٧٥

[77]) مما ذكره ابن الصباح عن قبر النبي على طريقة المفاضلة : أن الأنبياء كلهم لم يثبت لهم قبر إلا رسول الله فإنه لم يغيّر وذلك بالحفز والحرز وتواتر الخلفاء وكلهم أصهاره وأولاد عمه إل اليوم وإلى يوم القيامة لا يتغير ، مشيرًا إلى خروج النور من القبر النبوي إلى السماء على عكس سائر الأنبياء الذين ينزل عليهم النور من السماء مستندًا في ذلك إلى أن " قصة النور والقبر لها حديث يطول ولكننا اختصرناه والله أنه يطلع من قبره حتى يعم الآفاق" الرحلة، ص ١٧٥. .

[78]) عبد الباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، (الرياض) ١٩٩٣م، ج٢ ص ٢٣٨

[79] ()الرحلة ص ١٦٩ ؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج٢ص ١٩٤.

[80]) من المعروف أنه استقرت ذرية زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- في المدينة المنورة في أيام يزيد بن معاوية، فكانت الرئاسة في المدينة ما بين بني حسين وبني جعفر بن أبي طالب، ثم غلب بنو حسين بني جعفر وأخرجوهم من المدينة فسكنوا ما بين مكة والمدينة إلى أن أجلتهم قبيلة حرب. من غير الواضح الأسباب

٣٦٠هـ/٩٧٠م [81] وصارت إمرتها بعدئذ متداولة في بني عطية وبني جماز وهم فروع أخرى من بني الحسين.[82]

سكان المدينة

وفي نفس الصدد تطرق الرحالة إلى باقي عناصر السكان بالمدينة وذكر أن بها كثير من المجاورين للحرم الشريف الذين كانوا من مختلف بقاع العالم وكان منهم العلماء والتجار وطلاب العلم، ثم قال :" ... وسكان أهل مدينة يثرب عربان من أفصح العرب..."[83] وبطبيعة الحال لم يكن ما ذكره يحوي كل عناصر السكان , لأن المدينة كانت فيها بقية من نسل الأنصار. وكان للأغوات دور لا ينكر في مجتمع المدينة بحكم أنهم عبيد أوقفوا على خدمة المسجد النبوي، وهم من شتى الأجناس. و أوقف عليهم الأوقاف والجاميكة , ولهم كتاب بذلك يوضح وقفهم فيه على الحرم النبوي الشريف منذ سنة ٥٦٨ه/١١٧٢م وظل موجودا معهم إلى زمن السخاوي[84] . يضاف إلى ذلك، بعض سكان المدينة من أصحاب الحرف والمهن المختلفة وخاصة ممن يمتهن الزراعة ويعرفون بالنخاولة. والخيابرة وهم فئة قدمت من خيبر وربما اشتغل بعض أفرادها بالزراعة وممارسة بعض الحرف. كما سكنت المدينة قلة من الشيعة[85]، وأحاطت بها قبائل عربية مثل لاو والظفيرة[86]. وإن كان ابن الصباح لم يذكر لنا

التي جعلت المؤرخين ينسبون الإمارة إلى مهنا الأصغر مع أن إمارة بني حسين كانت في أجداده فمهنا الأصغر من ذرية أمراء حكموا المدينة ولم تنقطع إمارتهم، منذ غلب جده الأمير أحمد القاسم بن عبيدالله ابن عمه الحسن بن طاهر الحسيني؛ وقيل أن الذي غلب ابنه داود. بعد أن استقرت الإمارة في ذرية مهنا الأصغر، كان هناك تنافس ما بين قسمين من ذريته؛ الهواشم نسبة إلى هاشم بن قاسم بن مهنا الأصغر، والجمامزة نسبة إلى الأمير جماز بن قاسم بن مهنا الأصغر، إلى أن انحصرت الإمارة في الجمامزة. : عبدالباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١ (الرياض) . -١٩٩٣م. ج٢، ص ٣٣٢.

[81]) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ،تحقيق حلمي محمد احمد ،المجلس الأعلى للشئون الاسلامية (القاهرة)٢٠٠٨م. ج١ص ١٠١؛ ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١- ٣ تحقيق فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤، ، ج٢ص ٤٠٦.

[82]) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.، ج٤ص١٢وانظر أيضًا : عويضة الجهني: سلطة أشراف مكة في المدينة المنورة خلال القرن العاشر الهجري، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد السادس عشر، السنة الثامنة ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ نوفمبر ٢٠٠٧م، ص ٧٠.

[83]) الرحلة ، ص١٦٩.

[84]) السخاوي: التحفة ج١ص٦١-٦٢.

[85]) ويذكر ابن فرحون أن المدينة لم يكن بها من يعرف مذهب الإمامية الاثني عشرية حتى جاء القيشانيون من العراق. وكانوا أهل مال عظيم استطاعوا به تأليف قلوب النَّاسِ لمذهبهم حتى ظهر وكثر المشتغلون به غير ِأن ابن فرحون لم يحدد الفترة التي قدمت فيها أسرة القيشاني إلى المدينة

[86]) استطاع أحد الباحثين أن يتوصل لإحصائية سكان المدينة في العصر المملوكي في ضوء كتابات السخاوي ومن الطبيعي أن هذه الإحصائية غير شاملة لكل سكان المدينة خلال فترة الدراسة، نظراً لأن السخاوي لم يترجم لمن لم يصل

غير فئة الحكام وأصلهم وأهل المدينة –الذين وصفهم بالفصاحة– والمجاورين والطواشية, فربما كان ذلك سببه أن هؤلاء كانوا الأكثرية .

الحياة الاقتصادية للمدينة

بين ابن الصباح أن تربة المدينة سبخة وأرض نخل , مفسراً أن النخل أرض الوحل والطين , واستدل في هذا الشأن بحديث للنبي (ص)[87] وفي سياق غير متصل أوضح صاحب الرحلة أنه كان من نتيجة قابلية أرض المدينة للنخل أن صار الغالب على قوت أهل المدينة التمر[88] , وذكر أن نخل

إليه علمه من أهلها أو من ليس له شهرة علمية أو مهنية. غير أن تلك التراجم تعطينا مؤشراً لأصول ونسبة العناصر المكونة للمجتمع المدني، وتوضح الإحصائية أن عدد المترجم لهم ١١١٥ يأتي المدنيون على رأس القائمة وعددهم ٢٢١ أي نسبة ٢٠٪ تقريباً، وهو أمر طبيعي لوجود هذه النسبة لسكان البلاد، رغم أن هذه النسبة قد ترتفع، لو شملت التراجم الكثير من أصحاب الحرف والمهن، وخاصةً في الزراعة، حيث يشتغل بها بعض أهل المدينة. وفي المرتبة الثانية تأتي العناصر التي قدمت من مصر وعددهم ١٧٤ أي بنسبة ١٦٪ تقريباً، وهناك عوامل عديدة لارتفاع هذه النسبة؛ منها وجود السلطة المركزية بمصر التي أرسلت أعداداً كبيرة من رجالاتها لتولي الوظائف المختلفة في المدينة، كما أن لعامل القرب المكاني أثره في جذب أعداد كبيرة من المصريين. وفي المرتبة الثالثة العناصر التي قدمت من فارس، وعددهم ١٥٦ أي بنسبة ١٤٪، وربما تعود كثرة من قدم إلى المدينة من بلاد فارس إلى رسوخ المذهب الشافعي في المدينة، مما أدى إلى نزوح أعداد كبيرة من بلاد فارس حيث يسود المذهب الشافعي، إما لتلقي العلم أو لتولي بعض الوظائف بالمدينة. وفي المرتبة الرابعة المغاربة وعددهم ١٤٨ أي بنسبة ١٣٪ تقريباً وأغلبهم من طلبة العلم، وقد أدى انتشار المذهب المالكي أوائل العصر المملوكي، إلى جذب أعداد كبيرة من المغاربة حيث يسود المذهب المالكي بلاد المغرب. وفي المرتبة الخامسة عناصر غير محددة الأصل وعددهم ١١١ أي بنسبة ١٠٪ تقريباً، ولم أجد لهؤلاء نسبة واضحة، سواء إلى المدينة أو لغيرها من البلدان، غير أن هؤلاء بطبيعة الحال ينتمون إلى بلدان مختلفة ويحتمل أن بعضهم من أهل المدينة وتشكل العناصر التي قدمت من الشام المرتبة السادسة وعددهم ٨٨ أي بنسبة ٨٪، ورغم قرب الشام من المدينة، فلم يفد إليها سوى أعداد قليلة قياساً بالعناصر السابقة، يبدو أن ذلك راجع في جزء منه لرسوخ الحركة العلمية في الشام وتعدد المذاهب بها. يأتي بعد ذلك الأفارقة الذين ينحصرون في الزيالعة في ممالك الطراز الإسلامي شرق الحبشة، والأحباش في بلاد الحبشة والتكرور جنوب بلاد الغرب وعددهم ٤٤ أي بنسبة ٤٪ تقريباً وأغلبهم من طلبة العلم وخدام الحجرة النبوية. يليهم عناصر قدمت من مكة وعددهم ٤٣ أي بنسبة ٤٪ تقريباً وأغلبهم من أصحاب المهن: مثل أسر بني مشكور والشكليين وغيرهم. ومن العراق قدم ٢٩ أي بنسبة ٣٪، ونلاحظ أنه رغم سقوط بغداد في يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. وهجرة أعداد كبيرة من العلماء وطلبة العلم منها فلم يكن للمدينة نصيب كبير من تلك الهجرة بل فضل هؤلاء الهجرة إلى الشام ومصر حيث رحبت بهم السلطنة المملوكية، وقدمت لهم الرعاية. ثم يأتي بعدهم الأندلسيون وعددهم ٢٦ أي نسبة ٢/ تقريباً، ومن المعلوم أنه بعد سقوط المدن الإسلامية الزاهرة مثل سرقسطة والمرية، وطرطوشة، وقرطبة، وبلنسية، وإشبيلية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، نزح قسم من سكانها المسلمين إلى غرناطة وبلاد المغرب، وانحصر النفوذ الإسلامي بعد ذلك في غرناطة وبلاد المغرب، وانحصر النفوذ الإسلامي بعد ذلك في غرناطة جنوب الاندلس لهذا نلاحظ قلة من قدم إلى المدنية من بلاد الأندلس، في العصر المملوكي. ومن بلاد ما وراء النهر قدم ٢٦ أي بنسبة ٢٪ أيضاً وأغلبهم من خجندة وسمرقند وبلاد التركمان. ومن بلاد الروم والقرم وفد ١١ أي بنسبة ١/ تقريباً كما جاء إلى المدينة من الهند ٨ أي أقل من ١٪ تقريباً. ينظر : عبد الرحمن مديرس المديرس : المدينة المنورة في العصر المملوكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ٣١.
ص ١٣١-١٣٥

87) الرحلة ، ص ١٧٨

88 ()الرحلة، ص ١٧٠ .

المدينة كثير تبلغ غرساته في الطول ٦ أميال وفي العرض ٣ أميال [89]وأهل المدينة بسببه في رغد من العيش, وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحياة الاقتصادية للمدينة عموما كانت أحسن حالا من مكة لكثرة محاصيلها الزراعية , وبخاصة التمور التي أشار إليها ابن الصباح , ووفرة المياه, بالإضافة إلى الهدوء الذي شمل المدينة في غالب الأحيان لعدم وجود خلاف عنيف بين أمرائها على السلطة وقد أسهمت العوامل الطبيعية في قيام الزراعة الناجحة في المدينة , وسد حاجتها وحاجة مكة من المنتوجات الزراعية , نظرا لطبيعتها الصحراوية ,والحاجة الزائدة للمنتوجات الزراعية في موسم الحج ([90]) وكلامه هنا يتوافق مع المشهور في المصادر عن شهرة المدينة بالنخيل والتمور , فالقلقشندي مثلا قال "... وحول المدينة حدائق النخيل الأنيقة ,وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه , وغالب قوت أهلها منه.."([91])ولا شك أن التمور آنذاك كانت تدر عوائد اقتصادية كبيرة ,فالتمر طعام, أما النوى فاستخدم علفا لإبلهم ,كما استفاد سكان المدينة من جريد النخل وسعفها وليفها ,إذ كانوا يصنعون منها السلال والأدوات الأخرى التي يستخدمونها في حاجتهم[92].

أوقاف المدينة:

أشار ابن الصباح إلى أنه على القبر الشريف والحجرة الشريفة للزوار مائة صاع من التمر الذى في ضواحى المدينة ودائرتها وهو وقف وحبس على الزوار الذين يزورون في كل عام وللمجاورين للنبى عليه السلام ولحجرته وقبره فتوح كثيرة وللخدام وعمارة الحرم والقبة من الهدايا والأوقاف التي تأتى من مشارق الأرض ومغاربها من الذهب والفضة وأنواع الأثواب من الحرير والخز بأنواع الألوان من كل إقليم من عماير المسلمين كأهل الهند يأتون بهديات بلادهم وأعظم حوائجهم يهدونها للنبى عليه السلام ويقدم أهل كل إقليم ما عندهم أرفع الهدايا وأعظمها ومن الأرض كلها وتجيئه من الهدايا ما لا يحصى عددها ووزنها ويعطى منها للفقهاء والعلماء المجاورين عنده بالمدينة والفقراء والمساكين.[93]

وهو هنا يؤكد على دور الأوقاف في حياة المجاورين للمسجد النبوى وأهل المدينة كما وضح الأمر نفسه في مكة ولكن تجدر الإشارة إلى أن الهبات والأعطيات والأوقاف لأهل الحرمين، لم تكن

---

89 ()الرحلة ، ص ١٧٥ .

90) انظر : السمهودي ،نورالدين علي بن أحمد (ت٩١١هـ): وفاء الوفا، ج٤ص١٦١-١٦٢، ١١٣٠-١١٣٠ ،١١٤٠.

91) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر (القاهرة)، ٢٠٠٤م. ، ج٤ص٢٩٤-٢٩٥؛ وانظر :ياقوت، معجم البلدان، ج٢ص٤٠٩-٤١١، ج٥ص٤٥٠؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٧٢.

92) صبحي عبدالمنعم: المجتمع الحجازي في العصر المملوكي، العربي للنشر (القاهرة) ١٩٩٧م ص ٢٦.

93 ()الرحلة ، ص ١٧٥ .

مقصورة فقط على سلاطين المماليك الذين نالوا قصب السبق ونصيب الأسد في رصد الأوقاف لأهل الحرمين والمجاورين بهما، وإنما كان يتبارى في تقديمها زوجات السلاطين، وحواشيهم، وبناتهم ووزرائهم وقادة الجند، وأثرياء المسلمين، طلباً للمثوبة [94]. وتخفيفاً من أعباء الحياة وشظف العيش عليهم؛ لأن الرغبة في فعل الخير دائماً ما يعتبرها الناس صدقة جارية، وقد رصد أحد الباحثين وجود أكثر من مئة وثمان وعشرين ١٢٨ وثيقة وقفية خلال فترة المماليك من أرشيف دار الوثائق القومية ووزارة الأوقاف في مصر، وهي كما تضمنت الحجج الوقفية للسلاطين المماليك، تضمنت أيضاً عدداً كبيراً من الحجج الوقفية لغيرهم ممن ذكروا آنفاً .[95]

وبطبيعة الحال لم يكن المماليك فقط هم من يقومون بذلك فكما ذكر ابن الصباح أن الهدايا والأوقاف كانت تأتى من مشارق الأرض ومغاربها من الذهب والفضة والحرير والطعام.. وغير ذلك ويعطى منها للفقهاء والعلماء المجاورين بالمدينة والفقراء والمساكين.." والشاهد من اتساع رقعة تلك الأوقاف الموقوفة على بلاد الحرمين ، هو مدى قدرة هذه الأوقاف المالية والعينية على تلبية كثير من احتياجات فقراء ومجاوري بلاد الحرمين ، خاصة إذا علمنا أن ريع الوقف كان يحوى بالإضافة إلى الأموال، قمحاً أو أرزاً أو حنطة أو هدايا مختلفة، كما أشار صاحب رحلتنا[96] وهو ما يبرهن على أهمية ما تمثله هذه الأوقاف من أهمية كبرى للقاطنين في بلاد الحرمين في حياتهم الاقتصادية اليومية. ومن المعروف أن موكب الحج المصري تسبب في رواج الحياة الاقتصادية والاجتماعية أيضاً لمجاوري وفقراء بلاد الحرمين، فقلما يوجد عام كان يخلو فيه موكب الحاج المصري من سلطان أو أمير أو رب وظيفة سلطانية عظيمة إلا وأفاض على المجاورين والفقراء المساعدات المالية والعينية فعلى سبيل المثال ما حدث سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م عندما حج الأمير سلار[97] نائب السلطنة بمصر وفعل لمكة والمدينة وجدة شيء كثير[98] حتى لم يبق بالحجاز " ... غنى ولا فقير، صغير ولا كبير،

---

94 ()وثيقة وقف الناصر محمد، نشرها محمد محمد أمين، ملحقاً لكتاب تذكرة النبية، ج٢، (القاهرة)، ١٩٨٢م، ص ٣٨٨.

95 ()عبد الله بن ناصر السدحان: الأوقاف على الحرمين الشريفيين خارج المملكة العربية السعودية، بحث بمجلة الدارة ع (٤) س (٣٥)، شوال ١٤٣٠هـ، ص ١٩٦.

96 ()الرحلة، ص ١٧٥ .

97) الأمير سلار التتري: كان نائب السلطنة بمصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون عن أعماله في الحجاز ينظر : الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر، ط١ (الرياض)، ١٤٠٣هـ.

ص١٣٢٠، ص١٣٣٣، ص١٣٢٧، ص١٣٧٨؛ الديار البكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت. ٩٦٦هـ)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ، دار شعبان للنشر (بيروت)، ١٢٨٣هـ. ج٢، ص ٤٣٥

98 (نعلم أن المثال بعيد ما يقارب نصف قرن عن موضوع الدراسة وذكره هنا لها مبررين : الأول الدلالة على وجود الأوقاف بالمدينة منذ قيام دولة المماليك ، ثانيا: عدم انقطاع ذلك بل وكثرة الأوقاف وزيادتها من سنة إلى سنة كما لاحظ ابن الصبح.

عبداً وحراً، شريف أو غير شريف إلا وعمه الإحسان..." بل إنه كتب أسماء المجاورين بمكة، وأوفي عنهم جميع ما كان عليهم من الديون لأصحابها، وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مئونة سنة ، حتى كان الناس بالحرمين يقولون يا سلار كفاك الله هم النار.[99]

المزارات

ومن ضمن ما تناوله ابن الصباح وصف المدينة وحدودها وأشهر ما فيها من المزارات وسمى منها قبر حمزة بن عبد المطلب وشهداء أحد ، وذكر أن قبره رضي الله عنه يوجد على ضحوة من مسجد الرسول (ص)"... يشفى بتربته مرضى العين..."[100] وهذا يشير إلى اعتقاد البعض –وغالبهم من العوام – بتبرك القبور واستمرار تلك العادات والممارسات إلى زمن ابن الصباح وألا ما كان دونها . وذكر ايضاً مسجد قباء والعين الزرقاء وبئر أريس الذى تفل فيها النبي (ص) فعاد ماؤها عذباً بعدما كان أجاجاً، واستطرد ذاكراً أن بير أريس هو بير النبي الذي كان يتطهر مائه كل جمعه [101] وكل هذه المزارات التي ذكرها آنفا موجوده في قباء , وقد أثار قضية مفاضلة علماء المدينة بين مسجد قباء والمسجد النبوي مبيناً أن الاختلاف مرده اختلاف الفقهاء في تفسير قول الله تعالى :"لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ" [102] , وهو ما يوضح لنا كيف كانت الحركة العلمية والفقهية والتعليمية في المدينة زمن سلاطين المماليك على جانب كبير من الثراء.

على أية حال , ذكر ابن الصباح أيضاً خبر دار أبى بكر الصديق وقال أنها موجوده على ضحوة من النهار [103]. ولم ينس أن يشير إلى مسجد النفاق– الذي ارتبطت قصة بناؤه بغزوة تبوك– وقال أنه " نحو قبا يرميه قوس مرتين في حجارة سوداء"[104] . بطبيعة الحال لم يذكر ابن الصباح كل مزارات

---

99 ( )انظر فى ذلك: ابن أيبك، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت. ٧٠٩هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع المسمى "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر" تحقيق هانس روبرت رويمر، (القاهرة)، ١٩٦٠م، ج٩ ص ١١٨ وأمثلة أخرى عند المقريزى، السلوك، ج١ ص ٩١٧، ج٢ ص ٥ ؛ ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج٨ ص ١٤٦؛ الخزرجى ، العقود ، ج١ ص ٢٨٩-٢٩٠؛ ابن فهد، اتحاف الورى، ج٣ ص ١٣٢، ١٣٨ ؛ الجزيرى، درر الفرائد، ص ٩١٤.

100) الرحلة ص ١٧٦ربما أن ابن الصباح اختلط عليه الأمر حيث أن هناك أحاديث تؤكد الاستشفاء بتربة المدينة المنورة وخاصة تربة صعيب ومن وادي بطحان وهو ما ورد فيه حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ لِلمَرِيضِ: (بِسْمِ اللهِ تربَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا).وهو متفق عليه ورواه كذلك ابن ماجة وابو داود والنسائي واقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين. واختلاط الأمر على ابن الصباح ربما يكون مرده كبر سنة –كما اسلفنا- وقت أن هم بتدوين رحلته .

101) الرحلة، ص ١٧٦

102) التوبة ، الآية ١٠٧-١٠٨

103 ( )الرحلة ص ١٧٦ .

104) الرحلة ص ١٧٦، وقصة مسجد النفاق أو الضرار وردت في القرآن الكريم ، في سورة التوبة ، الآية/١٠٧-١٠٨ ،

المدينة وإن كان اجتهد في تناول خبر كثير منها , وربما يمكن تبرير ذلك بقصر المدة التي قضاها في المدينة والتي لم يجاور فيها على عكس مكة.

الجانب العلمي / فضائل المدينة وأماكن نزول الوحي.

عدد صاحب الرحلة بعض من فضائل المدينة موضحاً بعضها على طريقة " اختبار معلوماته في السيرة النبوية " من ناحية وربط بين فضائل مكة وأماكن نزول الوحي وأسباب نزول بعض الآيات من ناحية أخرى , من ذلك ما وضحه أن كل موضع من مواضع مدينة يثرب وحرم النبي (ص) وجميع جبالها وسهولها ووعرها فهي مواطن الوحي ونزول القرآن وجاء بأدلة منها: أن غزوة أحد الغالب على سورة آل عمران أنها نزلت فيها وفي من حضرها كحمزة ورجال يوم أحد والغالب عليها تسلية قلب النبي (ص) وقلوب الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار والصبر على ما أصابهم في مصائب رسول الله (ص) وأصحابه إذ أصيب منهم أربعة وستون رجلا من الأنصار وستة من المهاجرين واستشهد فيها حمزة بن عبدالمطلب , وقد أفادنا بأن ساحة المعركة أصبحت مزاراً للمسلمين الذاهبين للمدينة فقال : "... وهي اليوم مزار بقبور الشهداء بأحد..." . [105]

وفي نفس الصدد ذكر أن المدينة يكفيها شرف أن منها غزا رسول الله "...جميع مغازيه المشهورة أولها غزوة بدر ثم أحد ثم غزوة بني قينقاع الهود ثم غزوة بني النضير اليهود ..." واستكمل

حيث يقول الله تعالى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) شرح ابن كثير القصة قائلا أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له : " أبو عامر الراهبُ " ، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قَدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شَرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش ، فألَّبهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث في أحد ما حدث من امتحان للمؤمنين ، فذهب أبو عامر الراهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومَنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ، ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : (إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) ، فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة .ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ،ج٤ ص٢١٠-٢١٤.

[105]) الرحلة، ص ١٦٧

ابن الصباح ذكره لباقي الغزوات مثل غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بني المصطلق ثم غزوة الخندق ثم غزوة بني قريظة اليهود ثم غزوة سفر عائشة أم المؤمنين ... وفي تلك السفرة نزلت آية التيمم ثم غزوة فتح مكة ثم غزوة حنين ثم غزوة الطائف ثم غزوة الأحزاب ثم غزوة الحديبية ثم غزوة وادي تبوك الروم في ساعة العسرة وفيها نزلت براءة والأقل من سورة الأنفال.[106]. وأضاف لفضائل المدينة عين ماء اغتسل فيها الرسول(ص) فأمعن وجرت بعد أن كانت لا تجري وكان سفرها في الحر فنزل قول الله " وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون"[107] وهكذا نلحظ أنه ذكر العين كمزار وفضيلة تتميز بها مكة وفي نفس الوقت ربط بينهما وبين سبب نزول الآية . وهو ما أكد عليه حين قال في سياق متصل أن غالب نزول القرآن من المدني نزل بحرم النبي بالمدينة والباقي من المدني نزل في مغازي الرسول المذكورة المشهورة عند أهل السير المتوترة بالأخبار [108]. مما يدل على أن صاحب الرحلة قرأ كتب السير وكذلك قرأ في المؤلفات التي تناولت أسباب النزول , وهو ما يعطي رحلته أهمية دينية عامة وللدارسين في السيرة النبوية وفي التفسير خاصة, علاوة على المسلم العادي الذي يبحث في أمور دينه .

البقيع الشريف

ثم وصف ابن الصباح البقيع[109] مشيراً إلى أن البقيع متصل بعمارة الحرم النبوي "...وفيه

---

106) الرحلة، ص ١٧٧.

107) الرحلة ص ١٧٧ والآية ١٠٨ من سورة التوبة .

108) الرحلة، ص ١٧٧.

109) البقيع أو بقيع الغرقد: أصل البقيع في اللغة: الموضع الذي فيه أُرم الشجر من ضروب شتى، وبه سمي بقيع الغرقد. والغرقد: كبار العوسج ، فلذا سُمّي ببقيع الغرقد لأن هذا النوع من الشجر كان كثيراً فيه ولكنه قطع. وكان النبي قد خرج لنواحي المدينة وأطرافها باحثا عن مكان يدفن فيه أصحابه حتى جاء البقيع، وقال «أمرتُ بهذا الموضع»، وكان شجر الغرقد كثيرا، فسميت به ، أما. اول من دفن بالبقيع الغرقد؟ فقيل: كان البقيع مقبرة قبل الإسلام، وورد ذكره في مرثية عمرو بن النعمان البياضي لقومه أين الذين عهدتهم في غبطة بين العقيق إلى بقيع الغرقد إلا أنه بعد الإسلام خُصِّص لدفن موتى المسلمين فقط، وكان اليهود يدفنون موتاهم في مكان آخر يعرف بـ (حش كوكب) وهو بستان يقع جنوب شرقي البقيع.. و أول من دفن فيه من المسلمين هو أسعد بن زرارة الأنصاري وكان من الأنصار. ثم دفن بعده الصحابي الجليل عثمان بن مظعون، وهو أول من دفن فيه من المسلمين المهاجرين، وقد شارك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه في دفنه. ثم دفن إلى جانبه إبراهيم بن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولذلك رغب المسلمون فيها وقطعوا الأشجار ليستخدموا المكان للدفن : يراجع في ذلك : ابن جبير: الرحلة ، ص١٨١-١٨٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ص ٧٥-٧٦ مع التأكيد على أن بقيع الغرقد لم تكن المقبرة الوحيدة في المدينة المنورة قبل الإسلام، بل كانت هناك عدة مقابر متفرقة في المدينة وما حولها، ولم يكن البقيع ذا شأن عن غيره، حتى اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم مقبرة للمسلمين، بوحي من السماء إذ أن الأحاديث النبوية بينت أن اختيار موقعه جاء من عند الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها " . كما رواه أحمد والترمذي وابن ماجة .

قبة العباس وداخلها قبور الحسن والحسين ابنا علي ابن أبي طالب والعباس عم النبي وبجوارهم قبر عقيل أخي علي وقبر إبراهيم ابن النبي وقبر مالك الفقيه عالم المدينة ومفتي الأمة ... وقبر عثمان بن عفان صهر النبي عليه السلام وقبر أم علي بنت أسيد في قاع النخيل وقبر صفية بنت عبدالمطلب وبيت فاطمة بيت الأحزان من وراء ظهر قبة العباس بن عبدالمطلب..."[110] وذكر وسمى كثير من الصحابة وآل البيت ممن دفنوا فيه . وهكذا بين صاحب الرحلة أن سبب اهتمامه بخبر البقيع راجعا إلى أنه دفن في مقبرة البقيع كثير من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبناته وزوجاته وعماته وأحفاده والألوف المؤلفة من صحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ، وفي مقدمتهم الخليفة عثمان بن عفان ، وخيار من جاء بعضهم من التابعين والعلماء ، وأولياء الله الصالحين من أمة النبي.

الرحيل ومغادرة المدينة

وبعد أن انتهي من ذكر أسماء بعض ممن دفن في البقيع، ودع ابن الصباح المدينة إلى بلاد الشام وقلبه يتفطر "... من التأسف على فراق ذلك الحرم الشريف والقبر الشريف..." وأسهب واستطرد كثيراً في تعبيره عن حزنه العميق للرحيل من مدينة الرسول .[111]

110) الرحلة ، ص ١٧٧-١٧٨

111 ( )الرحلة، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

الخاتمة

عرضنا في هذه الصفحات القليلة صور من مشاهدات الرحالة المدجن عبدالله الصباح في المدينة المنورة , التي زارها إبان سلطنة الظاهر برقوق في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي, وقد حاولنا من خلال ملاحظاته أن نلقي بعض الضوء على جوانب معينة من الحياة الاجتماعية في المدينة في عصر سلاطين المماليك , وقد تنوعت ملاحظات الحاج المدجن عبدالله الصباح ما بين رصد الجوانب الدينية والمعتقدات والعادات لساكني المدينة والملاحظات الخاصة بالنشاط اليومي في المدينة

بينت الرحلة بعض الأمور ذات الدلالتين الاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها المدينة ولكن هذه الملاحظات جميعها إن كانت تشير برواج الحالة الاقتصادية وتدفق الحياة الاجتماعية بالحيوية والنشاط في المدينة المقدسة , فإنها في الوقت ذاته تشير إلى أهمية الحجاز في السياسة المملوكية .

تركت لنا الرحلة صوراً مميزة عن الحرم النبوي والروضة ووصفها وتنظيم زيارة الحجرة النبوية , والدور الذي لعبه الأغوات الطواشية في هذا الصدد.

رصد ابن الصباح صورة إحياء ليلة الجمعة بالحرم النبوي الشريف وحلقات العلم وما كانت تضمه من طلاب وفقهاء في العلوم الدينية والعقلية .

كما وضح صاحب الرحلة بعض ملامح الحياة الاقتصادية بالمدينة وإن كان اهتم بالزراعة على حساب حرفة الرعي ولم يشر للأسواق الداخلية .

لم يغفل ابن الصباح الإشارة إلى طبقات المجتمع وإن كان أغفل بعضها إلا أنه اهتم بالمكون الرئيسي للمجتمع المديني آنذاك.

أعطتنا الرحلة معلومات مهمة عن الأوقاف المملوكية على المدينة المنورة وأهميتها للمجاورين والحكام وفقراء المدينة عامة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

وثيقة وقف الناصر محمد، نشرها محمد محمد أمين، ملحقاً لكتاب تذكرة النبية، ج٢، (القاهرة)، ١٩٨٢م

المصادر المخطوطة والمنشورة

الأنصاري, عبدالرحمن الأنصاري :

تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب , تحقيق محمد العروسي المطوي , نشر المكتبة العتيقة (تونس) ١٩٧٠م.

ابن أيبك، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت. ٧٠٩هـ):

كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع المسمى "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر" تحقيق هانس روبرت رويمر، (القاهرة)، ١٩٦٠م

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م):

الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه , المعروف ب"صحيح البخاري" نشر علي حسن عبد الحميد , دار الزهراء(القاهرة) ١٩٩٣م

ابن بطوطة , أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

رحلته، المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب السفار"، تحقيق محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، (القاهرة)، د.ت.

أبو عبد الله العطار، محمد بن محيي البكري العطار (ت. ٨٤٠هـ/١٤٣٥م):

منازل الحاج، مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٠٨ جغرافياً، ميكروفيلم ٤٦٢٥٥

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ١- ١٢ تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب المصرية .

ابن تيمية :

الجواب الباهر لجواب الباهر في زوار المقابر, تحقيق سليمان بن عبدالرحمان الصنيع, عبدالرحمان بن يحي المعلمي اليماني, المطبعة السلفية (القاهرة) د.ت

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أبي أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م):

رحلة ابن جبير، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف (القاهرة)، ٢٠٠٠م.

الجزيري, عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر الانصاري (ت٩٧٧هـ/) :

الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر، ط١ (الرياض)، ١٤٠٣هـ

ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):

إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نشر سالم الكرنكوي، دار الجيل (بيروت)، ١٩٩٣م

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٣، تحقيق عبد العزيز بن باز، وغيره، ط١، مكتبة مصر (القاهرة)، ٢٠٠١م

الحموي، ياقوت شهاب الدين بن أبي عبد الله (ت. ٦٢٦هـ):

معجم البلدان، ط١ ، دار صادر (بيروت)، ١٩٥٥م.

ابن حزم, علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي أبو محمد(ت٤٥٦ه/١٠٦٤م):

المحلى بالآثار , تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري, دار الكتب العلمية (بيروت) ٢٠١٥م

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م):

صورة الأرض , دار مكتبة الحياة (بيرت) د.ت .

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، (القاهرة)، ٢٠٠٦م

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،

الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.

الخزرجى ، علي بن الحسين (ت. ٨١٣هـ/١٤١٠م):

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن على الأكوع، ط٢، مركز الدراسات والبحوث اليمني (صنعاء)، ١٩٨٣م.

الزرندي, علي بن يوسف الزرندي (ت : ٧٧٢هـ /):

المناظرة بين مكة والمدينة, دار الأمين – القاهرة, ١٩٩٣م

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت٨٣١هـ/١٤٢٧م):

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة , (بيروت) ١٩٩٣م

السمهودي, نور الدين علي بن أحمد (ت٩١١ه/ ١٥٠٥م):

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى, تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد دار الكتب العلمية ط٤ , ١٩٨٤م

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م):

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، (القاهرة)، ١٩٩٨م.

الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة ", تحقيق وتعليق , محمد زينهم عزب , دار الأمين , الطبعة الأولى , ١٩٩٣م

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) :

تاريخ الأمم والملوك ,دار الفكر (بيروت)د- ت

عبدالله الصباح :

أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار , نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط)٢٠٠٨م .

ابن عبد الهادي , شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت: ٧٤٤هـ(:

الصَّارِمُ المُنْكِي في الرَّدِّ عَلَى السُّبْكِي, تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني, مؤسسة الريان، (بيروت).٢٠٠٣م

العز بن عبد السلام:

قواعد الأحكام في مصالح الأنام, تحقيق طه عبد الرؤوف سعد, مكتبة الكليات الأزهرية (القاهرة)١٩٩١م

الفاسي, تقي الدين ابو الطيب محمد بن احمد,(ت٨٣٢ هـ/١٤٢٨م).

شفاء الغرام في أخبار سلطنة البلد الحرام، دار إحياء الكتب (القاهرة)، ١٩٥٦م

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٧ أجزاء، تحقيق فؤاد السيد، (القاهرة)، ١٩٦٦م,

ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ/ ١٤٨١م):

إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١- ٣ تحقيق فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤،

القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر (القاهرة)، ٢٠٠٤م.

ابن كثير , أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت. ٧٧٤هـ/١٣٧١م):

البداية والنهاية، الأجزاء ١٧- ١٨، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، (القاهرة)، ١٩٩٨م.

تفسير القرآن العظيم , المكتبة التوفيقية (القاهرة) د.ت .

المراغي, أبو بكر بن الحسين بن عمر المراغي(ت٨٠٦ه/ ١٤٠٣م) :

تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة, تحقيق: د. عبد الله العسيلان ط١/١٤٢٢هـ ص

مسلم ابن الحجاج القرشي (ت٢٦١ه/٨٧٥م) :

صحيح مسلم بشرح النووي, دار المعرفة (بيروت) ط٣ ١٩٩٦م

المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ,تحقيق حلمي محمد احمد ,المجلس الأعلى للشئون الاسلامية (القاهرة)٢٠٠٨م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٩م.

الونشريسي, أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى (ت ٩١٤هـ/١٥٠٩م):

اسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد مجلد : ٥ ، ١٩٥٦م ، ع ١-٢.

المعيار المعرب والجامع المغرب ,أشرف على تحقيقه محمد حجي, بيروت- دار الغرب الإسلامي, ٩٨١م.

المراجع

أحمد هاشم بدر شيني:أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي ,ط١, مركز دراسات وبحوث المدينة المنورة ٢٠٠٥م.

أحمد ياسين الخياري: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً, تعليق عبيد الله أمين كردي, مطابع دار العلم , ط١ , ١٩٩٠م

حمد الجاسر : رسائل في تاريخ المدينة : نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب , دار اليمامة (الرياض) ١٩٧٢م.

خالد محسن الجابري :الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة والمدينة المنورة، ٢٠٠٥م.

صالح أحمد العلي :الحجاز في صدر الإسلام: دراسات في أحواله العمرانية والإدارية , مؤسسة الرسالة (بيروت) ١٩٩٠م .

صبحي عبدالمنعم:المجتمع الحجازي في العصر المملوكي, العربي للنشر (القاهرة) ١٩٩٧م ص ٢٦.

عبد الباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، (الرياض) ١٩٩٣م، ج٢ ص ٢٣٨

عبد الرحمن مديرس المديرس : المدينة المنورة في العصر المملوكي, مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

عبد الله بن ناصر السدحان: الأوقاف على الحرمين الشريفيين خارج المملكة العربية السعودية، بحث بمجلة الدارة ع (٤) س (٣٥)، شوال ١٤٣٠هـ.

عبدالله يوسف الغنيم:أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة, منشورات وحدة البحث والترجمة (جامعة الكويت) ١٩٨١م

عدنان علي الفراجي :الحياة الفكرية في المدينة المنورة , الدار العربية للموسوعات (بيروت) ٢٠٠٦م.

علي السيد علي :الحياة الثقافية في المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك , دار عين (القاهرة) ١٩٩٤م

عوض الجهني: سلطة أشراف مكة في المدينة المنورة خلال القرن العاشر الهجري، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد السادس عشر، السنة الثامنة ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ نوفمبر ٢٠٠٧م.